الهجرة المحمدية أساس الحضارة الإسلامية

للأستاذ محمد عطفي جمعه

— ١ —

دعا نبينا محمد عليـــه الصلاة والسلام العرب فلبى دعوته الكثير، وتلكأ القليل ممن أعمتهم الأغراض والمنافع وأضلهم تنـازع السلطان والسيادة . وقد أتى محمد بكتاب وآيات بينـات ومبادئ كانت عقول العرب وطبائعهم مستعدة لقبولها وفهمها قبل نقدها نقداً ينتهي بالقبول والانضمام إليها . وكان نبأ ظهوره (عم يتساءلون ؟ عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون !) النبأ الأعجب ، مما سجل في تاريخ الانسانية . ولم ينقض عليه جيل من الزمان حتى ثل عروشاً كانت ثابتة الأركان ، وحطم دولاً عالية البنيان ، واكتسح ممالك وامبراطوريات رفيعة الذرى مترامية الأطراف ، ومحا معتقدات عريقة في القدم ، وهدم ديانات مرت عليها الأجيال والحقب ولم تنل منها ماناله الاسلام في عشرين سنة . ويدهش المؤرخ العصري أن يعلم أن سائر الأديان نمت وترعرعت في ظل حاكم ناصر أو ملك قاهر ، اعتز به الدين وتأيد حتى رسخت قواعده وثبت سلطانه ، ماعدا الاسلام . فكان الملوك والأمراء والأقوياء يقاومونه فيتغلب عليهم ، ثم يحمى المنسوبين إليه فيعتزون به ويستظلون بظله ويعظمون في أكنافه . وكان أول من علا شأنه بذلك الدين العرب أنفسهم ، فلم يكونوا قبله في المكان الأرفع ولا المنزلة السامية من الوجود التاريخي ، فنصرهم نصراً خارقاً ، حتى أصبح علمهم عالياً خافقاً ، في آسيا وأفريقية وأوربا . وإن سر هـذا النجاح وسببه وأساسه هو الهجرة المحمدية التي انتقل بها محمد من مكة الجامدة الآسنة الراكدة العاصية المستغرقة في الماديات المتشبثة بالسلطة الدنيوية الآخذة من المادات والأعمار بأوفر نصيب ، إلى المدينة الهادئة الهينة اللينة التقية النقية العفيفة المتعلقة بالمعاني والأرواح والمثل العليا الطاهرة

— ٢ —

يفنى البرايا ويأتي الوقت مختلفاً ليخرج الدهر تاريخاً من الأمم

بدل استقراء التاريخ الخاص والعام على صدق القانون السببي، ومقتضاه أن تكون الفترة الفاصلة بين جسام الحوادث سبعمائة عام تقريباً . وقد حددت أعمار تلك الفترات تحديداً دقيقاً في كثير من كتب التاريخ كتجارب الأمم لابن مسكويه ، ومروج الذهب للمسعودي ، ومقدمة ابن خلدون ، وابن الأثير ؛ ومن كتب الأفرنج حوليات تاسيت الروماني وتاريخ انحلال رومة لجيبون . ومن قبل هـذه التواريخ العالمية أشارت التوراة والتلمود والمشناة وتفاسير الأحبار إلى هـذا القانون . يقول بلا كنهيم : «إن تاريخ العالم مقسم إلى فترات قد تدوم الواحدة منها حوالى سبعة قرون ، وقد تنقص أو تزيد قليلا . فقد أسست روما قبل المسيح بسبعة قرون ودام سلطانها ونفوذها سبعمائة عام ، وفي نهايتها ظهر المسيح بدين جديد ينطوي على حياة جديدة ، وكان ظهوره مؤذناً بزوال تلك الدولة الرومانية العظمى التي حكمت العالم بالحديد والنار بعـد أن فتحته بالقوة والحيلة . وظهر الاسلام في نهـاية القرن السابع المسيحي ودامت عظمة الدول الاسلامية سبعة قرون . وفي سنة ٧٥٠ م نقلت الخلافة إلى بغداد بقيام دولة بني العباس ، ثم هاجمها المغول وقضوا عليها وعلى حضارتها » اهـ

ولم يظهر المغول وحدهم لمناوأة الإسـلام ، فقـد ظهر الصليبيون ونهضت أوروبا الحديثة تلك النهضة التي دامت سبعة قرون كانت نهايتها الحرب العظمى في أوائل هذا القرن . وقد بدأت نهضة الاسلام الحديثة في أوائل القرن الرابع عشر للهجرة . ومن العجيب أن تطبيق هذه النظرية السببية أو القانون السببي صحيح في حياة الأمم إذا أخذت كل منها على حدة ، فقد استمرت عظمة الأغريق الحربية والبحرية وعهد الفلاسفة سبعمائة عام ، ودولة الفرس عمرت سبعة قرون من أول تأسيسها لعهد كسرى ،

ومضى على حكم الملوك فى انجلترا سبعة قرون ، وبقيت إيرلاندا تحت الانجليز مثلها . ونحن نذكر هذا القانون السببى لا لأهمية خاصة به ، وإن كان فى ذاته ظاهرة تاريخية عجيبة تدل على دقة نظام الكون والعالم وخضوع حياة الأمم لمقاييس من الزمان وموازين فى الأعمال ، ولكن نذكره لعلاقته بظهور الإسلام ونهضته وهبوطه ، ثم بداية عهد الإحياء الذى ينبئ بالتجدد والبعث فى المائة الرابعة عشرة . وقد أوضح صحة هذا القانون أوزفالد شبنجلر فى كتابه « انحلال الغرب » وهستن شمبرلين فى « أسس القرن التاسع عشر » وولز فى كتابه « صورة العالم فى المستقبل » فليرجع إليها من يشاء من القراء

— ٣ —

إذن كانت بعثة الرسول وهجرته حادثين محتمين ، فكتب لهما التوفيق والنجاح على الرغم مما اكتنفهما من مظاهر الضعف . وقد أخطأ من ظن عداوة قريش للنبى وصحابته هزيلة أو وهمية ، أو أن زعماء الوثنية كانوا ضعفاء النكاية ، فقد كان المجتمع القرشى تام التكوين الاقتصادى والسياسى بالنسبة لحالة الحضارة المعاصرة ، وذا نظم حكومية وإدارية بارعة[1] . من ذلك أنهم جعلوا جائزة مالية لمن يطارد المهاجرين ويظفر بهما وهو ماتلجأ إليه شرطة الحكومات الغربية الحديثة . ومن الثابت أن محمداً وأبا بكر كانا منفردين لا ثالث لهما بعد أن ترك بطل الإسلام وسيفه ولسانه على ابن أبى طالب فى فراش النبى ليخدع المتآمرين بأن النبى ما زال فى داره ولم يغادر فراشه . وإن شجاعة على فى إيثاره وإقدامه على التضحية بنفسه لا تقل عن شجاعة أبى بكر فى مصاحبته . وكان من المستطاع أن يُغتال علىّ فى فراش محمد ظناً من أهل الوثنية أنه المقصود بأسيافهم وخناجرهم . ولكن حياة علىّ كانت ضرورية للاسلام فأنقذه الله وهو الفرد الراقد المستسلم لقضائه وقدره . أما محمد وأبو بكر فلم يكونا هاربين ولا مدبرين لينجوا بحياتهما من أخطار محققة محدقة ولكنهما كانا قاصدين إلى طيبة ليفتتحا عهداً جديداً ويستهلا مصر كفاح وجهاد وجلاد وسلسلة انتصارات لم يسبق لها مثيل فى تاريخ المعتقدات الدينية

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام تأليف كوصان

— ٤ —

فطن القرشيون بما ركب فى غريزتهم من الذكاء وبعد النظر وسعة الحيلة إلى أن ظهور هذا النبى قرين زوال دولتهم المدنية التى نظموها على نسق يشبه نسق المدن الأغريقية . وكان اليونان زعماء النقل البحرى كما كان العرب زعماء النقل البرى وحلقة الاتصال بين الشرقين الأقصى والأدنى ، وإليهم سفائن الصحراء حقيقة لا مجازاً ، كما كانوا مخالطين لكل شعوب البحر الأبيض وشواطئ المحيط الهندى والخليج الفارسى والبحر الأحمر ، ومطلعين على شؤون الأمم . فلما أدرك سادتهم وحكامهم أن دولتهم قد آذنت بزوال حصروا همهم فى ملاينة النبى وإغرائه ؛ فلما لم ينفع الاغراء والاستدراج لجأوا إلى التهديد والوعيد ، ثم إلى المقاطعة والتضييق فى شعاب مكة وغيرها ، ثم إلى التآمر والانتقام ، فهاجر النبى من مكة ، لأن الله هداه إلى أن ما بقى من عمره المبارك كاف لتعميم الدعوة ومقاومة ذلك البلد القوى الشكيمة الذى تألب نساؤه ورجاله على النكاية به ، ليحتفظوا بكيانهم القومى . كان المكيون محافظين ورجعيين فلم يرقهم أن يسلموا قيادهم للأحرار والمتطرفين من حزب محمد وأبى بكر وعلى وعمر وعثمان . وقد تعجب الأجيال التالية وأنسال المستقبل وأخلافهم كيف لم يقبل عرب قريش وخصوصاً أهل مكة على العقيدة الجديدة . والسر فى ذلك أن أرستوقراطية مكة حرصت على مالها وسلطتها ونفوذها وقوتها ، ورأت فى القرآن والدعوة المحمدية ما يزعزع أركان كيانهم الاقتصادى ويهدمه وهم أصحاب رؤوس أموال وعباد للمادة ، حتى إن معبودهم هُبل لم يكن يتكهن إلا بعد أن يدفع السائل لسادنه سلفاً دراهم معدودة . وكان للمال وأرباح التجارة وفوائد الربا واكتناز الذهب والفضة أكبر الشأن ، ولكن محمداً وأصحاب محمد جعلوا المال فى الدرجة الأخيرة من الاكتراث ، واتخذوه وسيلة لا غاية « وقد روى عن حاتم الأصم تلميذ شقيق البلخى أنه سار إلى المدينة فاستقبله أهلها ، فقال أين قصر رسول الله حتى أصلى فيه ؟ قالوا ما كان له قصر ، إنما كان له بيت لاطئ بالارض . قال فأين قصور أصحابه رضى الله عنهم ؟ قالوا ما كان لهم قصور ، إنما كان لهم بيوت لاطئة بالأرض » وكثير من المؤرخين يغفلون العامل الاقتصادى فى حياة العرب قبل الاسلام وبعده ، مع أنه

بجانب الثورة الاجتماعية التي أحدثها الاسلام قلب نظام المال رأساً على عقب ، وحارب الرأسمالية ، وحرم الربا ، وقدح في البخل ، وشرع الصدقة والزكاة ، وحض على صلة ذوي القربى ، ونظم المواريث ورتب حقوق المرأة ، وألف القلوب بالبذل وبسط اليد للبعيد والقريب . وبالجملة أوجد طبقة جديدة من أوساط الناس لمقاومة عبادة المال ، وحطم المثل العليا التي كان المكيون يمجدونها . ولم يكن هذا الانقلاب بالشيء القليل . والذي غاظ أهل مكة وأحنقهم وأحرق أكبادهم أن محمداً بلغهم أن هذا التبديل ليس من عنده ، ولكنه من عند الله ، فهو أمر محتوم واجب التنفيذ ، لأن إرادته أقوى من إرادة كل هذه الأوثان المعسكرة في الكعبة والمنتشرة في الحواضر والبوادي العربية

— ٥ —

يدهش المؤرخ من قدرة محمد على مواجهة الشدائد والاضطلاع بأعقد المشاكل ، فهذه المدينة التي هاجر إليها ولم يكن يعرفها من قبل إلا بالوصف والتصور بعد زيارته الأولى وهو طفل في حضانة أمه ، كانت تضم إلى جانب الأنصار عناصر قوية وعنيدة من اليهود والمنافقين والمعادين من المترددين وغيرهم ، وهي طبقات ثلاث يستطيعون أن يتغلبوا على المهاجرين والأنصار . وكان المنافقون واليهود والمعادون من حلفاء قريش أقوياء وأغنياء ، والمهاجرون والأنصار ضعفاء وفقراء ، حتى اضطر محمد لوضع نظام المؤاخاة . وقد اضطر بعض المهاجرين للعمل البدني لقاء أجور من التمر ، ولكن محمداً رأى أشد الخطر في اليهود الذين جمعوا بين المال والذكاء والجدال ودين منزل سابق لدين محمد ودين سلفه الناصري ، إلى حيلة واسعة ، ثم خيبة أمل يعقبها حقد دفين ورغبة شديدة في الانتقام . فقد عرف اليهود في محمد النبي المنتظر ، ولكن كبرياءهم أبت أن يطأطئوا رؤوسهم أمامه ، لأن القرآن أذاع حقيقتهم فامتدح أنبياءهم وانتقد أطماعهم وعرض بأخلاقهم . وقد أعماهم مالهم ، وأضلتهم شهواتهم ، وأصبحوا لا يقدرون الرجال إلا تبعاً « للرصيد » الذي يملكه أحدهم . ولم يكن محمد عميلاً لهم إلا في الاقتراض منهم ولو برهن بعض دروعه . ولم تكن له في صناديقهم وخزائنهم ودائع ضخمة ولا هزيلة ، لأن كل ما كان يصل إلى يده ينفقه في سبيل الله وفي حشد الجيوش وإعداد الحملات الموفقة ؛ فما زال يعالجهم حسب أمر ربه وطاعة لوحيه ، حتى حاربوه في السر والعلن ، فدسوا له السم ، وأعانوا عليه أعداءه ، وحرضوا جيشه على الفتنة ، وألفوا حزباً من « دعاة التردد والهزيمة » وهم المنافقون ومن لف لفهم وتواطأوا على خذلانه ؛ فلم ير بدّاً من ضرورة طردهم من الجزيرة وإقصائهم وقطع دابرهم ، فسبق حكام ألمانيا الحديثة بألف وأربعمائة عام في الوصول إلى الحقيقة المطلقة ، وهي أن العنصر المعادي في الوطن يعمل على تدميره وتخريبه ويعطل حياته بعرقلة التعاون . فكانت موقعة خيبر موقعة حاسمة في تاريخ الإسلام بل في تاريخ العالم . أما النصارى فقد أوصى بهم خيراً . وكانت بيت المقدس في أيدي المسلمين منذ الفتح العربي ؛ وكان الخليفة عمر يرعى حرمة الأماكن المقدسة النصرانية أيما رعاية وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره وسننه

قد تدهش لتسامح الإسلام مع المعتقدات الأخرى في حين أنهم لم يألوا جهداً في النيل منه . وفي الحق أن محمداً جاء بالقرآن مصدقاً للتوراة والإنجيل وقال الله عنه إنه خاتم الأنبياء والمرسلين ؛ وقد أمر باحترام النصارى واليهود وسماهم أهل الكتاب تمييزاً لهم عن عبدة الأوثان ؛ وقد اتبع المسلمون ما أمرهم به نبيهم حتى هذا العهد الأخير . وكان ضلع المسلمين في صدر الإسلام مع النصارى بالتخصيص بدليل آية « غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » وقد نال اليهود ما استحقوا بعد أن خانوا أمانة الله ونكثوا بالعهود وحاربوا نبيه

حرمت الشريعة الإسلامية الربا كما أن الشريعة المسيحية حرمته تحريماً لا يوصف ، وكانت متشددة في ذلك ما استطاعت ، فكانت النتيجة أن اليهود انبروا في الميدان وظلوا قروناً عديدة محتازين التجارة يجنون ثمارها ، لا يشاركهم في ذلك مشارك ولا يزاحمهم مزاحم . وكانت الشريعة الإسلامية قائمة على تكريم العلم ، والقرآن حافل بالآيات التي تحث عليه ، وكذلك الحديث ، فقد جاء فيه : « أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد . واطلبوا العلم ولو في الصين . والحكمة ضالة المؤمن . ويوزن مداد الحكماء بدم الشهداء يوم القيامة . والعلماء ورثة الأنبياء . وما خلق الله شيئاً أفضل من العقل »

— ٦ —

من أعمال نبينا عليه الصلاة والسلام تأسيس الرابطة الاسلامية التي جمعت بين قلوب المسلمين في أنحاء العالم جمعاً إنسانيًّا، فجعل العقيدة الروحية فوق الرابطة الجنسية، وجعل للإنسانية مثلاً أعلى بجانب حب الوطن فقال إنه من الإيمان، وحض على الأخاء وحب البشرية. وما كانت تلك الجامعة الاسلامية سوى الشعور بالوحدة العامة المثقفة مع فكرة التوحيد ووحدة الوجود. نعم كانت الجامعة الإسلامية العروة الوثقى لا انفصام لها، وقد أنشأها النبي منذ شرع يجاهد بالمدينة فالتف حوله المهاجرون والأنصار والمؤمنون من كل طبقات المجتمع، ففيهم الرقيق أمثال بلال، والسادة الأعيان كعثمان بن عفان، والأبطال كخالد بن الوليد. وقد ولدت تلك الجامعة التي ربطت بين قلوب المسلمين في المدينة المنورة وهي التي أعانت على هزيمة المشركين بعد قتالهم وتأسيس الحضارة الإسلامية التي يفخر بها العالم

وفي أثناء الهجرة المحمدية أعد محمد وسائل الاستيلاء على مكة، فقبل صلح الحديبية ونفذ بنوده بالدقة، ونقض حياة القرشيين بالحرب والحيلة، وقلب هزيمة أحد انتصاراً سياسياً باهراً، واستعمل سلاح الدعاية فغزا عقولهم وقلوبهم وأخلاقهم قبل أن يغزو بلدهم، وهزم إرادتهم قبل أن يهزم جنودهم، وهدم حصون نفوسهم، وحطم مثلهم العليا البالية قبل أن يهدم قلاعهم أو يحطم أصنامهم وأوثانهم طائعاً للوحي الإلهي، وتابعاً للمشورة الحسنة من صحابته حتى الأجانب منهم كسلمان الفارسي الذي وهبه لقب الأمارة، كما فعل بعده ملوك أوربا إذ جعلوا يسمارك « برنساً » أو أميراً، فقال محمد: « سلمان منا آل البيت ». وكان في كل هذا إنساناً سامي الأخلاق كيِّساً، مهذباً ناضج الرأي، لين العريكة سمحاً، لم يجد فيه خصومه عيباً. وهكذا شهد له الأغيار بعد انقضاء الأجيال فقال ولز في تاريخه العام: « كان محمد أكثر الأنبياء نجاحاً » ولا عجب ولا غرابة فمحمد هو الإنسان الكامل

— ٧ —

كان محمد عليه الصلاة والسلام نبياً مرسلاً ومصلحاً ومشترعاً، وجاء دينه وهو الأوحد الذي انطوى على شرائع وقوانين سياسية واجتماعية واقتصادية تقوم اعوجاج الفطرة البشرية، وتؤهل الفرد للعيشة في المجتمع الإنساني عيشة راضية راقية، ومكنت لتابعيه تأسيس أعظم دولة عرفها الشرق والغرب. وقد طبقت قواعده وظهرت مزاياه الصالحة في الحروب والمعاهدات والمعاملات الدولية وأثناء السلم؛ ولو نفذ بنصوصه لأغنى العالم عن نزاع الرأسمالية والعمال، ولانمحت الشاغبة من الوجود، لأن أحزاب الشمال في أوربا ولا سيما روسيا لا يطلقون إلا ببعض قواعده التي تقر العدل والرحمة والمساواة وضمان حرية الفرد وسعادته

وما كان يبغض شيئاً بُغضه الشرائع والقوانين الجامدة التي تقيد العقل فتقوده صاغراً أعمى. وليس القرآن إلا كتاب هدى للمؤمنين ورحمة وليس عثرة في سبيل ترقي المجتمع والآداب والشرائع والقوانين والمدارك العقلية. ونحن الآن في القرن الرابع عشر الهجري وقد بدأت فيه نهضة الإسلام حقاً كما بدأت نهضة أوروبا في القرن الرابع عشر المسيحي. ومتى وضع الإسلام في البوتقة وأخرج منه ما علق من الأباطيل الخداعة، عاد إلى أصله وهو توحيد الله تعالى والإيمان بأن محمداً هو رسول الله عليه الصلاة والسلام

محمد لطفي جمعة

* * *

أهم المراجع:

سيرة النبي تأليف بوله؛ دستور المدنية: لوبلهاورن؛ إضلال الغرب: شنجلر؛ العرب قبل الاسلام: برسيفال كوصان؛ الطبقات الكبرى: لابن سعد؛ السنة المحمدية: جولد زيهر؛ كتب السيرة وتاريخ مكة: للأزرقي

مجلة الرواية

أرقى مجلة قصصية صدرت في الشرق

تغذي عقلك وذوقك بروائع الأقاصيص الموضوعة والمنقولة. تصدر عن دار الرسالة مرتين في الشهر؛ واشتراكها في مصر ثلاثون قرشاً، وفي الخارج خمسون. مجموعة سنتها الماضية تشتمل على النص الكامل لكتاب (اعترافات فتى العصر) لألفريد دي موسيه، وملحمة الأوذيسة لهوميروس، وكتاب (مذكرات نائب في الأرياف) لتوفيق الحكيم. وعلى ثلاث مسرحيات طويلة وعلى ١٢٠ أقصوصة من أروع الأقاصيص في أشهر اللغات، وثمن المجموعة في مجلدين ٣٥ قرشاً و ٢٥ قرشاً بدون تجليد عدا أجرة البريد